

الفصل الخامس

القواميس والمعاجم

لم يكن في مصر قبل الحملة الفرنسية عارفون باللغات القريبة أو تواميس لها ، علماء الحملة يحضرون معهم بعض القواميس اليوس ببطر يضع أول قاموس فرنسي عربي ، الجماعات والمجلات الأسيوية وجهودها ، قاموس الأب رفايل ، مطبعة بولاق تطبع بعض تواميس اللغات الثلاث ، ابراهيم باشا يشير على رفاعة بوضع قاموس فرنسي عربي ، طريقة رفاعة في الحاق بعض المعاجم لكتبة التي ترجها ، قاموس سريوس افندي ، تلاميذ رفاعة يقتدون به جهود خريجي الألسن لوضع القواميس ، مترجمو المهندسخانة ينهجون نهج رفاعة ، جهود مدرسة الطب لترجمة القواميس الطبية الفرنسية ، قاموس الشذور القدسية ، قاموس مسر «لين»

ذكرنا من قبل أن الصلات العلمية بين مصر والغرب كانت مقطوعة ميتوتة طول العهد المملوكي العثماني فلم يكن في مصر معهد واحد تدرس فيه أية لغة من اللغات الأوروبية ، ولم يكن في مصر من له معرفة يأحدي هذه اللغات ، أو يتحدث بها ، غير أفراد الجاليات الأوروبية ، وقد كانوا يعيشون في عزلة وفي أحياء خاصة بهم حيث تقوم متاجرهم ومساكنهم .

وقد كانت الحكومة منذ عصر المماليك حتى مجيء الحملة الفرنسية تحتفظ دائما بوظيفة تقليدية هي وظيفة «الترجمان» ، وكانت «خدمته الوقوف في كل ديوان لأجل تعريف الكلام بكل لسان»^(١) ، وقد ظل هذا التقليد معمولاً به حتى أوائل عصر محمد علي ، فتولى هذا المنصب بوغوص بك ، ثم لقب فيما بعد بناظر الخارجية ، وتولى إدارة ديوان التجارة والأمور الخارجية ، أو بمصطلح العصر التركي «أمور» أجنبية وتجارة «مصرية ديواني»^(٢) .

قلبا وفدت الحملة الفرنسية على مصر عانت ما عانت من مشكلة الترجمة^(٣) ، واستعانت على حلها بطائفة من البشوريين ، وبيعض من حضروا معها من المستشرقين ، وقد كانت ترجمة هؤلاء اجتهدية غير دقيقة ، فبقت كانت تنقصهم القواميس التي تجمع بين مفردات اللغتين الفرنسية والعربية ، وقد ذكر الجبرقي أنه رأى في مكتبة المعهد الديني عند زيارته لها كتباً «مفردة لأنواع اللغات وتصاريها» ، واشتقاقاتها بحيث يسهل

(١) شهابي غريال ، تقرير حسين أفندي ، ص ١٣ و ٥٦ .

(٢) Deny, Sommaire des Archives Turques, etc. pp. 105, 125, 250, 332, 333.

(٣) انظر كتابنا «تاريخ الترجمة في مصر في عهد الحملة الفرنسية» ، دار الفكر العربي ، ١٩٥٠ .

عليهم نقل ما يريدون من أى لغة كانت إلى لغتهم فى أقرب وقت (١)، ولكن هذا النص عام لم يفصل أنواع اللغات التى كانت تتناولها هذه القواميس، وهل كان من بينها ما يجمع بين اللغة العربية وأى لغة أوربية أخرى؟

كذلك ذكر الأب لويس شيخو خطأ أن مطبعة الحملة طبعت - فيما طبعت فى مصر - معجماً فرنسياً عربياً (٢).

وبدأت الحملة قبيل رحيلها تعد بعض الشبان الأقباط لتعلم اللغة الفرنسية، فلما عادت الحملة إلى فرنسا خرج معها بعض هؤلاء الشبان، وقد نبغ منهم بعد سنوات أليوس بقطر الذى وضع فى فرنسا أول قاموس فرنسى عربى، وأشرف على طبعه فى باريس سنة ١٨٢٩ بعد وفاته المستشرق كوسان دى برسيغال وكانت حركة الاستعمار فى أوربا فى ذلك الوقت شيطنة، والتنافس بين الدول الأوربية على أمته، وصحب هذا التنافس تنافس آخر لدراسة أحوال الشرق - مطمح الانتظار - ولغاته، وتاريخه، وجغرافيته، وعاداته، وأنشئت فى دول أوروبا المختلفة الجماعات والمجلات الآسيوية، ومدارس اللغات الشرقية، وأنتجت هذه الحركة نتاجاً وافراً من دراسات قيمة كان من بينها قواميس كثيرة تجمع بين اللغات الشرقية الثلاث - العربية والفارسية والتركية - وبين اللغات الأوربية المختلفة.

فلما بدأت حركة الترجمة فى عصر محمد على حوالى سنة ١٨٢٠، وكانت متجهة فى أول الأمر إلى النقل عن اللغة الإيطالية ظهرت الحاجة إلى قاموس يجمع بين مفردات اللغتين العربية والإيطالية، وكلف بوضعه الأب روفائيل زاخور راحة، فلما أنشئت المطبعة فى أواخر سنة ١٨٢١، كان ثانى أو ثالث كتاب طبع بها هو قاموس إيطاليانى وعربى، يتضمن باختصار كل الألفاظ الجارية بها العادة، والالزم لتعليم الكلام، ولمفهومية (كذا) اللغتين على الصحيح، وقد يقسم إلى قسمين، القسم الأول فى القاموس المرتب على حسب المعتاد، ويتوجب ترتيب حروف الأبجدية، القسم الثانى، ويتضمن مجموع مختصر من أسماء وأفعال من الأشد إلزاماً وأكثر فائدة لدرس اللغتين (٣).

وقد وضع المؤلف الأغراض التى دفعته إلى وضع هذا القاموس فى مقدمته فقال: «... فقد اضطررت من قبل وظيفة التعليم، وسهولة ذلك معنى الألفاظ بهذه اللغة والتفهم على التلامذة الدارسين، وعلى من يتدرب لترجمة الكتب من المتفهمين، لأنى (كذا) أولف قاموساً ترجمتاً وأجيزاً، مقتطفاً عزيزاً، يشتمل على

(١) عجائب الآثار، ج ٣، ص ٣٦. وقد كانت المطابع الأوربية قد أخرجت فى أواخر القرن ١٨ بعض القواميس التى تضم اللغة العربية للغات الأوربية، أنظر مثلاً القاموس الأسباني اللاتيني العربى الذى طبع فى مدريد سنة ١٧٨٧.

Francisco Caez : Dictionario Español Latino-Arabe, Madrid, 1787.

(٢) الآداب العربية فى القرن ١٩، ج ١، ص ٣.

(٣) أنظر مقدمة القاموس.

كل ما يحتاج الأمر إليه ، وما كان المعول عليه ، وذلك في اللغتين الإيطالية والعربية بما في الترجمة من الألفاظ الضرورية . . . (١) ، وقد طبع هذا القاموس في بولاق سنة ١٢٣٨ (١٨٢١) .

وقد كانت الترجمة في عصر محمد علي واسعة الآفاق ، فشملت النقل عن كل اللغات — شرقية وغربية — ولهذا لم تلبث مطبعة بولاق أن أخرجت بعد خمس سنوات (١٢٤٢ — ١٨٢٦) قاموساً فارسياً تركياً من وضع خيرت أفندي (٢) سكرتير ديوان محمد علي (ديوان أفندي) . ثم قامت المطبعة على إخراج عدد من القواميس التركية والفارسية والعربية (٣) ، وكلها فيها عدا " تحفه " خيرت ، مما سبق وضعها وطبعها في الآستانة .

ففي سنة ١٢٤٥ (١٨٣٠) طبع في بولاق " تحفه " وهبي ، وهو قاموس فارسي تركي سبق أن طبع في الآستانة سنة ١٢١٣ (١٧٩٨) .

وبعده سنة واحدة (١٢٤٦ — ١٨٣١) طبع موجز عن القاموس السابق بعنوان " تحفه " وهبي ، وأضيف إليه الألفاظ العربية فأصبح قاموساً تركياً عربياً .

وفي سنة ١٢٤٩ (١٨٣٤) طبع قاموس فارسي تركي صغير عنوانه " سبحة صبيان " ، وكان قد طبع في الآستانة سنة ١٢١٧ (١٨٠٢) .

وفي سنة ١٢٥٠ (١٨٣٥) طبعت الترجمة التركية مع المتن العربي لقاموس الفيروز ابادي تحت عنوان " الاقيانوس البسيط في ترجمة القاموس المحيط " ، وكان قد ترجم وطبع في الآستانة سنة ١٨١٤ — ١٨١٧ وفي سنة ١٢٥١ (١٨٣٦) طبع " برهاني قاطبي " ، وهو قاموس فارسي تركي ، وضع المتن الفارسي ابن خلف ، وترجمه إلى التركية احمد أمين أفندي ، وكان قد طبع في الآستانة سنة ١٢١٤ (١٧٩٩) .

وفي سنة ١٢٥٣ (١٨٣٨) طبع " الترجمان " ، وهو مجلد صغير به مفردات عربية وتركية . وفي سنة ١٢٥٥ ، طبع " تحفه " خيرت ، وهو قاموس تركي عربي فارسي صغير تأليف خيرت أفندي وضع لاستعمال تلاميذ المدارس .

هذه هي قواميس اللغات الثلاث ، كما كانت تسمى ، وقد أدت مهمتها ، فسهلت للقائمين بالترجمة عن إحدى هذه اللغات إلى الأخرى عملهم .

(١) أنظر مقدمة القاموس ، وعنوانه الكامل بالإيطالية كما يلي :

"Dizionario Italiano e arabo, che contiene in succinto tutti i vocaboli che sono più in uso e più necessari per imparare a parlare le due lingue correttamente."

(٢) خيرت أفندي هو صاحب كتاب رياض الأدباء وحياض الكتبا . أنظر تفصيلات أكثر منه وعن مؤلفاته في :

Deny, Op. Cit., pp. 3—4.

Journal Asiatique, 4e. serie, 2, 1843, pp. 24—61. (٣)

وحوالى سنة ١٨٢٥ تحول محمد على بوجهه عن ايطاليا إلى فرنسا ، فاستدعى إلى مصر الفرنسيين ، سنة ١٨٢٧ أنشئت مدرسة الطب المصرية ، وبدأت تتعلب على مشكلة اختلاف اللغات بالترجمين وترجمة الكتب الفرنسية إلى العربية ، وفي سنة ١٨٢٦ أرسلت أكبر بعثة إلى فرنسا ، وفي سنة ١٨٣٢ عاد معظم أعضاء هذه البعثة وبدأوا يشاركون في حركة الترجمة عن الفرنسية إلى العربية ، وهنا ظهرت الحاجة الماسة إلى قاموس بل قواميس عديدة مختلفة للغتين .

أحسن هذه الحاجة قبل غيره كبير مترجمي العصر رفاعة رافع الطهطاوى ، وأحسها وهو في فرنسا يتخصص في الترجمة ، ويترجم في مختلف الفنون والعلوم ، وأغلب ظنى أنه لم يوفق هناك إلا إلى قاموس بقطر فقد ظهرت طبعته الأولى في باريس بعد وصوله بثلاث سنوات ، وقبل عودته إلى مصر بستين ، فلما عاد إلى وطنه وبدأ يراجع بعض الكتب التي ترجمها في باريس وبعدها للطبع أحس هذا النقص مرة ثانية ، وأحس به إحساساً قوياً ، وعبر عن شعوره هذا في أول كتاب طبع له وهو كتاب المعادن النافعة ، الذى طبع في بولاق بعيد عودته في سنة ١٢٤٨ ، فقد قال في مقدمته ، وقد فسرت مفرداته على حسب ماظهر لى بالفحص التام وما تعاضى منها حفظت لفظه ، ورسمته كما يمكن كتابته به ، وربما أدخلت بعض تفسيرات لطيفة . والعذر لى إذا زل قدم ترجمتى في بعض التفاسير ، لأن اللغة الفرنسية لم يفهم ختامها إلى الآن بقاموس شاف مترجم^(١) . ويبدو ان رفاعة كان قد عبر عن شعوره هذا لإبراهيم باشا عند مقابلته له أول وصوله إلى الاسكندرية ، فبادر إبراهيم باشا وكلفه بوضع هذا القاموس ، فقد أشار رفاعة في هامش الكتاب السالف أمام الجلة السابقة إلى هذا الأمر فقال : وقد أمرنى سعادة ولى النعم أفندينا إبراهيم باشا بترجمة قاموس ، وعين لى حضرة عثمان بك (يقصد عثمان باشا نور الدين) قاموس أكاديمية ، ولكن عاقبى عنه عوايق . منها أشغال أبى زعبل ومنها أنه يحتاج إلى وضع المترجم في كتب خانة ويحتاج أيضا إلى أن يكون معى مساعد فرنساوى ، بل هذا الشغل هو شغل نحو عشرة أنفار حتى يكون مستوفيا ومستوعبا للالفاظ الاصطلاحية .^(٢)

أمام هذه العقبات لم تنفذ الفكرة ، ولكنها ظلت تشغل تفكير رفاعة ، فلما قدم كتابه الثانى وقلائد المفاهر في غريب عوائد الأوائل والأواخر ، إلى المطبعة في السنة التالية (١٢٤٩) بدأ ييحتال على تنفيذ الفكرة ، ورأى أن يضع للكتاب في أوله قاموسا صغيرا لشرح ماورد به من ألفاظ غريبة ، ودعا غيره من المترجمين أن يهجموا به ، فيحاق كل منهم بكل كتاب يترجمه قاموسا شبيها بقاموسه ، حتى إذا مضى بعض الوقت كان لمصر من جهودهم قاموس على كبير ، مشتمل على سائر غريب الالفاظ المستحدثة إلى

(١) المعادن النافعة ، ص ٣ .

(٢) المعادن النافعة ، ص ٣ .

ليس لها مرادف أو مقابل في لغة العرب أو الترك ، وهذا نص تقدمته للقاموس وشرحه للفكرة ، قال : « شرح الكلمات الغريبة التي توجد في كتاب قلائد المفاخر . . مرتبة على حروف المعجم ، مضبوطة حسب الإمكان ، ومفسرة على الوجه الآتم سواء كانت أسماء بلدان أو أشخاص ، أو أشياء . ولما كانت هذه الألفاظ في الأغلب أعجمية ، فلم ترتب إلى الآن في كتب اللغة العربية ، وكان يتوقف فهم هذا الكتاب عليها عربانها بأسهل ما يمكن التلفظ به فيها على وجه التقريب ، حتى أنه يمكن أن تصير على مر الأيام دخيلة في لغتنا ، كغيرها من الألفاظ المعربة عن الفارسية واليونانية ، ولو صنع المترجمون نظير ذلك في كل كتاب ترجم في دولة أفندينا ولي النعم الأكرم ، لانتفى الأمر بالتقاط سائر الألفاظ المرتبة على حروف الهجاء ، ونظامها في قاموس مشتمل على سائر الألفاظ المستحدثة التي ليس لها مرادف أو مقابل في لغة العرب أو الترك ، فإن هذا مما يفيد التسهيل على الطلاب وبه تحصل الإعانة على فهم كل علم أو كتاب . » (١)

وقد كانت طريقة رفاة في هذا القاموس أن يكتب اللفظ بحروف عربية مراعية طريقة نطقه باللغة الفرنسية ، ثم ينص على كيفية نطق هذا اللفظ بالطريقة الأثرية القديمة ، ثم يشرح معنى اللفظ بجملة أو جمل تكثر أو تقل حسب الظروف ، وفيما يلي أمثلة من هذا القاموس :

١ - ابريزلة = بسكون الموحدة ، وكسر الراء بعدها مثناة تحتية ، فزاي مكسورة ، فلام . أثناء نثيق ويقال أيضاً « ابرزلة » و « ابرزيل » ، بفتح الراء = اسم لسلطنة كبيرة في القطر الشرق من أمريكا الجنوبية ، محكومة بعيلة (كذا) من بلاد البرتغال ، وحاكها يلقب « امبراطور » ، يعنى سلطاناً ، أو قيصرأ ، وأهلها المتأصلون بها غير الافرنج أكثرهم قبائل أرباب شرور وجبر وتوحش عظيم ، حتى أن منهم من يأكل لحم الآدميين ، خصوصاً لحم العدو الذي يقبضون عليه في الحرب ، (٢)

٢ - « اسقيمو » بكسر الهمزة ، وسكون السين ، بعدها قاف مكسورة ، فياء ساكنة ، فميم مضمومة بعدها واو ، وربما زيد فيها شين معجمة ثقيلة « اسقيموش » = قبل نل بشمال أمريكا حمل مثل أهل « لا بونيا » والسويد ولهم توحش عظيم (٣) .

٣ - « أوبرا ، أوبرة » بضم الهمزة ، وكسر الباء الفارسية التي تقرأ بين الفاء والباء ، فراء مفتوحة ، هي أعلا « سبكناكلات » فرنسا (راجع سبكناكل) ، وتطلق على نوع مخصوص من الأشعار (٤) الخ . وفي نفس الوقت الذي كان يفكر فيه رفاة في وضع قاموس ، ثم يحتال على وضعه هذا الاحتيال ،

(١) قلائد المفاخر ، ص ٢ .

(٢) قلائد المفاخر ، ص ٢ .

(٣) المرجع السابق ص ٤ .

(٤) المرجع السابق ص ٨ .

كان موظف آخر اسمه «سريوس افندى» قد تقدم إلى محمد على بقاموس شامل للغات الخسر (وله يقصد اللغات الثلاث الشرقية واللغتين الأوربيتين الشائعتي الاستعمال الفرنسية والإيطالية) ووافق محمد على طبعه، فقد قرر مجلس الجهادية في ٢٥ رجب سنة ١٢٤٧ (١٨٣٢) «بناء على التماس سريوس افندى المترجم طبع الكتاب المشتمل على اصطلاحات اللغات الخمس السابق صدور أمر سعادة افندينا ولي النعم بطبعه بعد ترجمته وإصلاحه، بشرط أن يقوم المترجم بمباشرة طبعه، وأن يذهب بذاته لمراجعة تصحيحه بالمطبعة، ويكون بمعينه رجل خبير باللغات الثلاث^(١)».

وقد رجعت إلى جميع القوائم التي أحصت الكتب المطبوعة في بولاق في عصر محمد على فلم أجد بها إشارة إلى هذا القاموس، كذلك راجعت فهرس دور الكتب التي أفدت منها فلم أجد له فيها ذكراً، فلعله لم يطبع.

أما رفاة فلم ينس مشروعه، بل حافظ على تنفيذه في معظم الكتب التي ترجمها وطبعت بعد ذلك، ففي سنة ١٢٤٩ طبع كتاب «مبادئ الهندسة»، وفي أوله «معجم يتضمن بيان بعض كلمات هندسية، وتفسير ألفاظ اصطلاحية، ينتفع به الطلاب، وتكمل به فائدة الكتاب».

وفي سنة ١٢٥٠ طبع كتاب «التعريفات الشافية لمريد الجغرافيا» وفي نهايته «جدول الألفاظ الاصطلاحية المستعملة في الجغرافيا بأنواعها، مرتبا على حروف المعجم لتسهيل هذا الفن على لطالب».

فلما أنشئت مدرسة الألسن، وبدأ تلاميذها وخريجوها يترجمون، أخذهم أستاذهم رفاة بطريقته، فظهرت معظم كتبهم وفي آخرها ملاحق مرتبة ترتيباً أبجدياً لشرح الأعلام والألفاظ الاصطلاحية الواردة في تلك الكتب، فهذا خليفة افندي محمود قد ألحق بكتابه «أنحاف الملوك الألبا بتقدم الجمعيات في بلاد أوربا، جدولاً وشرح الكلمات الغريبة»، في ٤٧ صفحة.

وهذا حسن افندي قاسم قد خصص ٢١ صفحة من كتابه «تاريخ ملوك فرنسا» لذكر «معجم البلدان والأماكن الخفية في هذا الكتاب التي تحتاج للذكر، وأما الأماكن الشهيرة فتطلب من كتب الجغرافيا»، وقد قلده فيه أستاذه رفاة تقليداً صادقا، وهذه أمثلة من معجمه:

١ - «أكبيلاشيل» بكسر الهمزة، وسكون الكاف، وفتح الشين المعجمة = مدينة بيلادالمان في دوقية «باسرين»^(٢).

٢ - «كسل»، بفتح الكاف، وتشديد السين المهملة = مدينة في فرنسا بغلندرة بمديرية الشمال^(٣).

٣ - «لنبرديا»، بضم اللام، وسكون النون، وكسر الموحدة التحتية، وسكون الراء وكسر الدال المهملة = اسم لجميع أجزاء إيطاليا من ابتداء ثغور طوسكانة إلى نهاية السويس (يقصد سويسرا)^(٤).

(١) الوثائق المصرية، المجلد ٣٤٨، في رمضان ١٢٤٧.

(٢) و (٣) و (٤) تاريخ ملوك فرنسا، ص ٣ و ١٣ و ١٥ من المعجم.

وقد بدأ قاسم افندى يحدد في الطريقة ، فقصر المعجم السابق على أسماء البلدان ، ثم ألحقه بمعجم آخر لأسماء الأعلام ، أو معجم الرجال الموجودين في هذا الكتاب ، على خد تعبيره .
غير أننا نأخذ على هذه المعاجم أو القواميس الصغيرة كلها أنها أهملت ذكر الألفاظ والمصطلحات بالحروف اللاتينية إلى جانب الحروف العربية ، ولو أن المترجمين فعلوا هذا لأعفوا أنفسهم من الإطالة في ذكر طريقة النطق بالأسلوب القديم .

وقد كان لتلاميذ الألسن وخريجها جهود في حركة وضع القواميس ، فصنف خليفة افندى في سنة ١٢٦٤ قاموساً للغات الثلاث ، العربية والتركية والفارسية ، ونشرت الوقائع المصرية في العدد ١٢٣ بتاريخ ٩ شعبان ١٢٦٤ . أن اليوزباشي محمود خليفة افندى المتخرج من مدرسة الألسن بالأزبكية قد ألف رسالة تشتمل على مفردات اللغات الثلاث العربية والتركية والفارسية ، فصدر الأمر بطبع ما يلزم منها على نفقة الميرى ، وإعطاء الأفندى المسمى إليه ربحها ليحصل بذلك على السرور ، وبئال الخط الموفور ، .
وذكر صالح مجدى في ختام رسالته عن رفاة حلية الزمن ، ثبثاً بأسماء تلاميذه ، فقال إن من بينهم مصطفى بك السراج ، وقد شرع في عمل قاموس فرنسي عربي لم يتمه .

وقد امتد أثر رفاة وتلاميذه في هذا الميدان إلى المدارس الأخرى ، ففي مدرسة المهندسخانة اتبع بعض أسانذتها الطريقة السابقة ، فألحق أحمد افندى فايد مثلاً بكتابه الأقوال المرضية في علم بنية الكرة الأرضية ، نبذة في ٣٨ صفحة ، تشتمل على بيان ألفاظ هذا الفن الاصطلاحية ، ولما خرجت الألسن دفعاتها الأولى عين منها اثنان هما أبو السعود وصالح مجدى في مدرسة المهندسخانة ، وعهد إليهما بتدريس اللغة الفرنسية وترجمة مايلقى من دروس ووضع قاموس أزمعت المدرسة وضعه في العلوم الرياضية^(١) .
أما مدارس الطب ، فقد قام بالترجمة فيها أول إنشائها طائفة السوريين ، وقد بذلوا في عملهم جهداً اجتهدياً ، فلما عاد أعضاء البعثات من الأطباء المصريين ، وبدأوا يشاركون في حركة الترجمة ، كانت مهمتهم أسهل من مهمة أسلافهم السوريين ، وذلك لأنهم كانوا — إلى إتقانهم اللغتين العربية والفرنسية — على علم بالعلوم الطبية ومصطلحاتها .

ولكنهم مع هذا كانوا في حاجة إلى قاموس طبي ، ولم يتبع طريقة رفاة في مدرسة الطب إلا الدكتور برون ، في كتابه الجواهر السنية في الأعمال الكيميائية ، فقد ألحقه بذيل في ١١٩ صفحة وشرح الآلات الواردة في الكتاب ، ورتب هذا الذيل على حروف المعجم الشيخ التونسي مصحح الكتاب ، وقدم له بقوله : وبعد قلباً من الله سبحانه وتعالى بإتمام كتاب الكيمياء للهاجر في جميع الفنون ، ناظر مدرسة الطب البشرية الشهير ببيرون ، وكانت فيه أعمال جمة ، تحتاج إلى آلات معرفتها مهمة ، وكان لم يذكر في الكتاب

(١) هابدين ، دفتر ١٠ (مدارس عربي) ج ٩٩٤ ، رقم ١٩٥ ، إلى مدرسة الألسن في غابة جهاد ثاني ١٢٦١ .

منها إلا القليل . . . فقصده أن يجمع جميع الأشكال ، ويجعلها كالذيل ليكون بها الإتمام ، ولأجل أن تراه كلها بمجموعة في ورقات قليلة ، لتسهل مراجعتها في المهمات الجليلة ، فجمعها في هذه الورقات ، ووضحها أتم توضيح كما هو المقصود للمراجعات ، وأمرني أن أرتبها على حروف المعجم لتكون في المراجعة أسهل وأقوم ، فامتثلت أمره لما فيه من الفوائد الخ ، ومن الآلات التي شرحت في هذا المعجم : الأنوبية ، والاندبيق ، والبوتقة ، والجفنة ، وجهاز تعيين الوزن النوعي للهواء والغازات ودورق ولف ، والخبار ، والمرشح . الخ وكلها ألفاظ واصطلاحات هؤلاء الطلائع الفضل في كشفها أو صياغتها فإننا لا نزال نستعملها حتى الآن في كتبنا العلمية .

غير أن كثرة الكتب الطبية التي ترجمت كانت تتطلب إيجاد أو ترجمة قاموس طبي ، وقد بدأت المدرسة بترجمة قاموس صغير ^(١) في هذا الموضوع من تأليف د. نايستن Nysten ^(٢) ، ولكنه لم يف بالغرض ، فأحضر كلوت بك من فرنسا قاموس القواميس الطبية Dictionnaire des Dictionnaires de Médecine تأليف د. فابر Fabre ، وهو في ٨ أجزاء ويشتمل على جميع الاصطلاحات العلمية والفنية في الطب والنبات والحيوان والعلوم الأخرى المختلفة المتصلة بالعلوم الطبية .

وتعاونت مدرسة الطب بكل هيئاتها على ترجمة هذا القاموس إلى اللغة العربية ، «ففرقة ناظر المدرسة إذ ذاك» وهو الدكتور برون ، على مهرة معلمها ، وهم : حضرة إبراهيم أفندي النبراوي معلم الجراحة الكبرى ، وحضرة محمد علي أفندي معلم الجراحة الصغرى ، وحضرة محمد شافعي أفندي معلم الأمراض الباطنية ، وحضرة محمد أفندي الشامي معلم التشريح الخاص ، وحضرة عيسوي أفندي النحراوي معلم التشريح العام وحضرة العلامة السيد أحمد أفندي الرشيدى معلم الطبيعة ، وسعادة حسين أفندي غانم الرشيدى معلم الأقراباذين والمادة الطبية ، وحضرة مصطفى أفندي السبكي معلم أمراض العين ، وحضرة حسنين علي أفندي معلم النباتات في ذلك الحين فترجم كل منهم الجزء الذي أعطيه ، واجتهد في توقيع لفظه على المعنى حتى شكرت مساعيه ^(٣) .

ولم يكتب الدكتور برون ، بهذا بل أراد أن يكون القاموس الجديد جامعاً أيضاً للألفاظ والمصطلحات الطبية القديمة ، فأتى بالقاموس المحيط ووزعه على أفراد هذه الهيئة ، وأشرك معهم مصححي المدرسة الشيخ محمد عمر التونسى ، والشيخ سالم عوض القنباقي ، والشيخ علي العدوي ، وأمر كلا منهم أن يراجع الجزء الذي بيده ، وينتقي منه كل لفظ دل على مرض أو عرض ، وكل اسم نبات أو معدن أو

(١) Dunne, Printing and Translations, etc, p. 343.

(٢) ترجم هذا القاموس إلى اللغة التركية في عهد السلطان عبد العزيز تحت عنوان : لغات طبية أثر جمعها عليه ههنا . وطبع في الأستانة سنة ١٢٩٠ في ٦٤٠ صفحة .

(٣) الشذور الذهبية في المصطلحات الطبية ، ص (ج) من المجلد .

حيدان ، ، ولم يفتح « برون ، هذا أيضاً ، يقول الشيخ التونسي : « ثم خصني الناظر المذكور باستخراج ما في القانون من التعاريف ، وما في تذكرة داوود من كل معنى لطيف ، وزدت على ذلك ما في فقه اللغة ، ومختصر الصحاح ، وما في الهروي من التعاريف الصحاح ، وضمت لذلك أسماء الأطباء المشهورين ، وأسماء عقاقير كنت رأيتها في بلاد السوادين ، (١) .

فلما تمت هذه الجهود جميعاً ، عهد بهذا القاموس الجديد إلى الشيخ التونسي ، فرتب الألفاظ والمصطلحات على حروف المعجم ، وراجع مراجعة دقيقة ، ولم يأل جهداً - كما قال - « في تصحيح كلماته ، وتهذيب عباراته ، (٢) ، فلما انتهى من هذا كله قابله معه وكيل مدرسة الطب الدكتور محمد شافعي أفندي ، وسماه التونسي في النهاية «الذخيرة الذهبية في المصطلحات الطبية» ، ولم يقصره على الألفاظ العربية ، بل ضمنه أسماء لاطينية ، وأخرى فرنسوية ، وأخرى فارسية ، سواء استعملتها العرب أو كانت محدثة ودخلت في الألفاظ الطبية لأدنى سبب ، (٣) .

ولم يكد التونسي ينتهي من إعداد قاموسه حتى كان محمد علي باشا قد لبي نداء ربه ، وأخذت الحياة العلمية في عهد عباس الأول تركد ويخمد نشاطها ، وخشى كلوت بك أن يضع القاموس فاصطحبه معه إلى باريس وفي التاسع من سبتمبر سنة ١٨٥١ قدمه هدية للكتبة الأهلية (٤) Bibliothèque Nationale هناك . وفي مفتح القرن العشرين فكرت مصر ثانية في هذا القاموس ، وأحضرت له نسختان شمسيان أوردتا في دار الكتب الملكية في القاهرة ، وفي حدود سنة ١٩١٠ بدأت نظارة المعارف تفكر في طبعه ، وعهدت بالأمر إلى الدكتور أحمد عيسى بك ، فنشر منه مائة صفحة فقط ، انتهى فيها إلى لفظ «أردان» ، أي أنه لم يستوف حرف الألف ، ولم يقف جهد الدكتور عيسى بك عند نشر النص العربي كما تركه التونسي ، بل أعاد ترجمة كل لفظ من الألفاظ القاموس إلى اللغتين الإنجليزية والفرنسية ، ونشره جامعاً لهذه اللغات الثلاث ، وطبع هذا الجزء على نفقة دار الكتب الخديوية ، في مطبعة المقتطف بالقاهرة سنة ١٣٣٢ (١٩١٤) ، غير أنه وقف عند هذا الحد ولم يتم طبع بقية القاموس ، فظل حتى الآن منسياً في دار الكتب ينتظر من يعنى بنشره وإحيائه . وفي نفس الوقت الذي كان التونسي يعد فيه قاموس «الذخيرة الذهبية» ، فكر الدكتور « برون ، في طبع القاموس المحيط للفيروز آبادي في مصر ، وقد أشار إلى مشروعه هذا كثيراً في رسائله إلى صديقه

(١) (٢) و (٣) «الذخيرة الذهبية» ص (ج - هـ) .

(٢) Duane, Op Cit. p. 344 وقد عاب و . قوله على مبيد كلية الطب (كان السيد وقت كتابة المقال هو علي باشا إبراهيم) ، عده معرفته بهذا القاموس حتى ذكره له ، وذكر أيضاً أن الدكتور محمد بك شرف لم يحاول عند وضع قاموسه الطبي الجديد أن يفيد من قاموس التونسي ، وسيستر « دن » أنه أول بالقد لهدم معرفته بتشروع طبع هذا القاموس ، وبنا بذل الدكتور عيسى بك من جهد في هذا السبيل ، وهذا وقد أخرني عيسى بك مرة أن وزارة المعارف كانت قد مكنته بطبع القاموس بالاشتراك مع الدكتور فارس نمر باشا ، ولأمر ما تفاقم نمر باشا عن الاشتراك ، ولهذا لم يكمل الدكتور عيسى بك نشر الباقي ، ثم أخبرني أنه بعد الآن قاموا بطبعه وأوفى من «الذخيرة الذهبية» ، وأنه سيظهر قريباً .

« جول مول » ، فني خطابه إليه المؤرخ ١٤ يناير سنة ١٨٤٥ قال « وتكون غخطا إذا حسبت أن القاموس يوجد عند العلماء ، فليس هناك في القاهرة ولا في مصر كلها عشرة علماء يملكون هذا القاموس ، بل ليس هناك عشرة علماء يعرفون كيف يستعمل القاموس » وختم خطابه بجملة فيها تهكم مرير ، قال « فلنعتد إذن قاموساً للعلماء »^(١) : « Donnons donc un dictionnaire aux Ulémas. »

وقد ذكر لصديقه في خطابات أخرى أنه أعد للأمر عدته ، فأحضر نسخاً كثيرة مخطوطة كما أحضر نسخة القاموس المطبوعة في كلكتا سنة ١٢٣٠ - ١٢٣٢ ، وأنه اتفق مع الشيخ التونسي على مراجعة النسخ ومقابلتها أثناء الطبع ، وأنه طلب من الباشا أن يأذن له بطبعه^(٢) في مطبعة بولاق ، غير أنني رجعت لأقدم نسخة من القاموس طبع في بولاق ، فوجدت أنها نشرت في جزئين بإشراف وتصحيح الشيخين محمد قطة العدوي ونصر الهوريني ، وذلك في سنة ١٢٧٢^(٣) (١٨٥٦) بأمر محمد سعيد باشا ، ولم أجد في المراجع التي أفدت منها ما يبين الأسباب التي عاقت « برون » ، والتونسي عن تنفيذ مشروعهما ، وجعلت تنفيذه على يد الشيخ نصر الهوريني .

وأخيراً لا ننسى أن نذكر أنه بينما كانت هذه المحاولات تتخذ طريقها لوضع أو لترجمة أو لنشر القواميس ، كان هناك شيخان ، أحدهما انجليزي ، والثاني مصري أزهرى ، يجتمعان كل ليلة — لمدة سبع سنوات — في منزل متواضع بحارة الروم بالقاهرة وبين أيديهما نسختان من القاموس المحيط ، ونسخ كثيرة من قواميس اللغة العربية المختلفة ، فيقرآن ويراجعان ، ويتفهمان ويصححان ، فإذا مضى الهزيع الأول من الليل عاد الشيخ الأزهرى إلى داره ، وعكف الشيخ الانجليزي على ترجمة ما قرأ في ليلته إلى اللغة الانجليزية ، فلما أتم تسعة أعشار القاموس عاد إلى وطنه ، وظل صديقه الأزهرى يوافيه بالعشر الباقي بعد مراجعته ، وهناك أتم ترجمة القاموس ، وطبع بنصيه العربي والانجليزي الطبعة الأولى في لندن سنة ١٨٦٣ تحت عنوان « مد القاموس عربي انكليزي Arabic English Lexicon » .

أما الشيخ الانجليزي فهو المستشرق المعروف « مسترلين M. Lane » ، وأما الشيخ الأزهرى فهو الشيخ ابراهيم عبدالغفار الدسوقي الذي يقول بعد أن قص قصة علاقته بصديقه : « وقد وردت أجزاء من الكتاب المترجم إلى بعض الذوات بمصر ، مطبوعة باللغة العربية والانكليزية باسم هذا الرجل ، مرسوما فيها صورتي ، والثناء على ما كان من مروءتي »^(٤) .

(١) Artin Pacha, Lettres du Dr. Perron. pp. 29, 90-62.

(٢) Voyage au Darfour p. 10. وانظر : Jomard في مقدمته لكتاب Enc. Ist. Art. Tunis.

(٣) أنظر الطبعة الأولى من القاموس ، ج ١ ص ٦٨٠ ، ج ٢ ص ٦٨٥ ، وقد طبع طبقات أخرى في مصر في ١٢٨٩ و ١٣١٩ ، أنظر معجم سرركيس ، ثم انظر عن هذا الموضوع مقالنا السابق الذكر دكتور برون والشيخان الطنطاوي والتونسي .

(٤) كتب الدسوقي قصة علاقته بمسترلين بنفسه ، وعلها منه على مبارك ، الخطاط ج ١١ ، ص ٩ - ١٣ ، أنظر أيضا أحمد أبين النخاعة ، المدداني ١٣٦ و ١٢٧ و ثم انظر مقدمة قاموس لين .